اللقاء...

قصة للكاتب الفرنسي جان ريفيزري
نقلها الى العربية الدكتور سهيل ادريس

لم اكن استطيع التفكير في الاقامة مع امي، بعد ان غادرت المستشفى، فأخذت ابحث لي عن مسكن. وعبثاً جريت هنا وهناك، ثم لم أجد مفراً من نشر اعلان في صحيفة: «طبيب يبحث عن بيت بأربع غرف، في الضاحية». وتلقيت جواباً.

واني لأذكر تلك الرحلة الطويلة، تحت مطر يصحبه بَرَد، وقد افضت بي الى البناية التي دُعيت اليها والتي رأيتها من غير أمل: انها تنتصب رمادية اللون، في ساحة منبسطة كاليد، على هامش جادة صاعدة. ولقد دلفت اليها فاكتشفت مسكناً خرباً يشبه مقبرة منبوشة. ومع ذلك، فقد اتفقت في خمس دقائق مع الشخص الذي قرر مغادرته. واذ خرجت، مسلماً وجهي الى المطر، توقفت عند العتبة، انظر امامي الى الساحة الصغيرة بشجراتها الاربع الداكنة، في وحشة ذلك الاصيل الشتوي، فأتذكر، بحزن، ساحة اخرى، هي ساحة «الانفواس» التي سأتركها، والتي تبدو هذه الساحة الصغيرة شكلاً منمنماً عنها، هو صورة لوحدتي وكآبتي. ولكني سرعان ما دافعت عن الفكرة المريرة، واردت ان يشيع في نفسي بعض الامل، فرحت اتفحص بعين مبتهلة فوضى الشوارع، والازقة التي لا مخرج لها، والمصانع والحدائق: ركام متداخل من الاشياء الرمادية والسوداء لم الاحظ، قبل اليوم، مثل انتظامها البسيط وخطوطها الكبرى. وكانت تلك ساعة الخروج من المصانع، فكان هناك رجال يتنكبون محافظهم ويدفعون ابواب المقاهي، وآخرون عند دراجاتهم، يقفون على ساق ويرفعون الاخرى ليمتطوا المقعد، بتلك الحركات الخرقاء التي تأتيها ذوات الاربع اذ تتزاوج.

وفي الايام التالية، اخرج الحمالون بعض اثاث امي القديم من أغطيته، فأيقظوه ونفضوا عنه الغبار، وما لبث ان اتخذ طريقه الى مسكني الجديد. واشتريت آلة للتوتر وساعة وبعض الامصال. واخيراً علقت على جدار البناية لوحة عريضة تعلن سكنى الطبيب الجديد.

***

ثم كان انتظار الصابر. ولقد أخذت، وانا وحيد في مكتبي، اقرأ الصحف. اما في غرفة الانتظار، فقد كانت امرأة عجوز لا تبسم قط، بسبب ما عانته من مصائب تزرد امام مدفأة؛ وقد استخدمتها لفتح الباب وتدبير شؤون المنزل. وكانت قد طلبت الي ان تظلّ هناك لتنعم بالدفء، ما دام أحد لا يأتي، وأضافت «إن الامر لن يطول، فانني احدث عنك أهل الحيّ».
وفي اليوم الاول، عكر عليّ جرس التلفون وحدتي تعكيراً سعيداً: وكانت هي امي تسألني، وهي قلقة على بدء عملي، عما اذا كان كل شيء على ما اروم. وانقضى الاسبوع في هدوء وصمت مطلقين. وكنت اذا ضجرت من وحدتي، هاجرت الى غرفة الانتظار لأثرثر مع المرأة العجوز التي تدعو نفسها الآن بمديرة شؤوني. وكانت ترفع من همي إذ تحدثني عن اطباء الجوار الذين لم تكن تحبهم، على ما بدا لي؛ وكانت تومىء احياناً ايماءة موجزة الى بعض الاطباء الذين ماتوا منذ زمن بعيد، فأدرك، وانا استمع اليها، هزال الذكرى التي قد يخلفها طبيب بعد حياة طويلة من العمل.

على ان مديرة شؤوني ادخلت الى مكتبي، ذات صباح باكر، عاملة كانت تبكي وهي ممسكة يدها بمنديل مدمّى. وضمدت زبونتي الاولى التي عادت بعد ذلك طوال اسبوع بدا لي اقصر من سابقيه: ثم كانت الوحدة من جديد. وأخذ الوقت يمر، وبدأت اشعر باليأس حين تلقيت زيارة وكيل للمنتجات، وهو شيخ لاهث استراح الى المقعد الذي قدّمته له. وبعد ان وضع على مكتبي بعض العينات وبعض الورق النشاف، حدّثني حديث خبير عن الاطباء الذين أصبحت الان منافساً لهم: «إن الدكتور ترامار منهمك في السياسة؛ ولقد رؤي يوم الاحد الماضي على رأس موكب. والعمال لا يحبون ذلك. واما الدكتور غرانجا، فقد خسر كثيراً منذ زواجه ...» وقد تركني زائري وهو يوجّه اليّ اقوالاً مشجعة ويغمز بعينيه غمزة مشاركة:

– صدقني يا دكتور، إن لك مستقبلاً لامعاً. إن الحي صالح، والعامل كريم في الدفع. إنك مدعو الى الربح!

على ان الحادث الذي لا يصدق، ما لبث ان وقع: لقد دعيت أخيراً لزيارة مريض حقيقي. فبعد ظهر أحد الايام، بسطت لي مديرة شؤوني من غير كلمة، نصف صفحة من دفتر تلميذ، كتبت عليه بضع كلمات: «دوبوبيه، ٣٢١، شارع بول برت.» فتناولت حقيبتي، ومضيت في الطريق.

***

كان ثمة درج خشبي يصعد في ظلمات متنامية حتى يفضي الى باب حزرته بفضل انعكاس رقعة من النحاس استطعت ان اقرأ عليها اسماً. وأعريت سمعي، فلم تبلغني من الداخل حركة. إن لكل باب وجهه الذي لا يقلّ خداعاً عن وجه انسان ولا عن عينيه؛ وقد كنت اودّ ان اعرف خيراً مما عرفت وجه الباب الذي سينفتح امامي. وتلمست يداي الخشب الخشن، وتعلّقت اظافري بنتوءات. ولكنّ ذلك لم يزد معرفتي بباب «دوبوبيه» الذي طرقته أخيراً طرقتين خفيفتين بسبابتي المطوية. وسرعان ما استدار الباب على رزّاته، وفجأني نور قويّ: فرأيت امامي ما يشبه ممراً يكتنفه بعض الأثاث، ويفضي، على سجادة ملتممة، الى نافذة بعيدة.

ودخلت بقدم ثابتة وعرفت ان امرأة مسّنة كانت تمشي بحذائي. وكانت قد حدثتني. ومضيت امامها بين طاولات ومناضد وكراسي ممزقة تملأ غرفاً صغيرة، فكنت ازيحها احياناً بحركة واثقة كما لو انني اعرف هذا المكان منذ وقت طويل. وكان معلقاً على الجدران صور رجال ملتحين، ونساء عُقد شعرهن عقداً بارزة، وكلهم واقف امام لوحات صبيغة او مرتفق حواجز، في رضى كامل من اللاوجود. وكانت العجوز تخب خلفي وتحدثني بصورة طبيعية جدا، كما لو ان حديثنا كان تتمة لحوار قطع عشية الامس او هذا الصباح بالذات.

ولا بدّ أن انتظاري خلف الباب، وتلمس الخشب الخشن، قد أعدّاني لهذا اللقاء مع عالم الفقر الذي لم اكن انتظره. إن التي ادخلتني قد عرفتني على التوّ: فقد كنت مثلها فقيراً: وما كان لفقري ان يختلف عن فقرها؛ ذلك انه ليس ثمة إلا فقر واحد ليس فيه شوق او أمل في

حال أفضل ، وانما فيه عزم متصل امام عناد الحياة الثقيل ، وتوتر قابل العنف للذهن المتنبه للخطر ، وفيما وراء ذلك ، رضى بالسعادة او بالشقاء اللذين يوزعهما القدر بيده الثقيلة ، يد الوحش المعتوه . ومن النافـــذه ، كان يسيل ضوء مثلوج من أضواء نهاية الاصيل ، متشحاً بغلالة حريرية ذابلة ، فيتسلل الى الزوايا والثنايا ؛ ولقد بهرني ذلك البياض البخـــاري الذي يشبه بياض الغمام المحدّب الذي يمرّ في السماء ، ايام الجو الريّق .

***

ولا بدّ انّ وقع اقدامي قد ايقظ « دوبوبيه » الذي كان مختبئاً بغطاء متداع تأرجح وسقط على الارض من غير ضجة : وبرز من الغطاء شيخ متقبع ممذّب القسمات ، ذكرني خروجه من الغطاء بيقظة دبّ قطبي كان نائماً تحت ثلج متراكم .

ولم يحتفظ الوجه بقسماته المعذبة وقتاً طويلا ، فقد بدا ان دوبوبيه عرفني . فتقاربت كفانا وتلامستا وظلتا متحدتين ردحاً طويلاً .

وجلست على السرير ، وقعد دوبوبيه ، وأخذ كل منا يتكلم . وقد وقفت المرأة خلفي وكان صوتها يمرّ من فوق رأسي ؛ وقد كان بالامكان ان تنتظم جميع كلماتها ، منذ ان فتحت لي الباب ، في جملة منسجمة ، هائلة ، تتمدد من غير انقطاع . وفي الوقت نفسه كان دوبوبيه يتكلم وهو يتمايل يميناً وشمالاً ، وفقاً لتنفسه الشاق الذي كان يقطع كلامه عباراتٍ قصيرة : وكان صوته ، وهو يتضخم بأصداء صدر هزيل يذكّر ، بصوت بوق .

وانا كذلك كنت اتكلم ، وكانت كلماتي ، بلهجة أعنف ، تسعى للتسرب الى صمت اللحظة التي كان يتركها العجوزان وهما يحدثاني عن همومهما ومشقاتهما . واعتقد اننا كنا سعداء ، وان وحدة كاملة تقريباً كانت آنذاك تتحقق : كان الرجل المضطجع ، ورفيقته الواقفة ، والطبيب الجالس على حافة السرير يشكلون جوقة منسجمة . وكان دوبوبيه يقول : « لقد شعرت اولاً بضيق في صدري ، ثم حسبت ان حيوانات تتأكل أحشائي . وكانت امرأتي نائمة بالقرب مني ، وقد اردت ان اوقظها ، ولكني كنت متألماً جداً حتى اني لم استطع ان ارفع يدي . » وكانت المرأة ترتل عبارتها التي لا تنتهي : « ... في عام ١٩٢٣ ، حدث له مثل ذلك ، ولكن ليس على هذا الشكل ، بعد ظهر يوم أحد ، بينما كنا نحن الاثنين في الطريق ؛ لاننا كنا غالباً ما نذهب لزيارة اهله الذين كانوا ما يزالون في الطرف الآخر من المدينة ... » وفي الوقت نفسه ، كنت اقول للشيخ ، من غير ان يسمعني : « ينبغي الا تجزع لذلك ، ولكن لا بد من فحص جدي ، أصف لك بعده علاجـــاً ستكون جدواه عظيمة بقدر ما تفرض على نفسك الراحة . »

وكانت السمفونية ترتفع وتكتمل من غير نغمات ناشزة ، ترافقها العبارة التي لا تنتهي ، وكان صوت دوبوبيه المليء بالنبرات ، والذي كانت تقطعه اختناقات مفاجئة ثم انبعاثات مرنـّة ، يصدي بالقرب من صوتي الذي كان أشد رقة ، وكان متموجاً كانغام الفلوت . ولم يكن احدنا يسمع الآخر : كان كل يبث نفسه شكاته ، ولكن التوافق كان كاملاً ، وكذلك العاطفة التي كانت تحيي كلماتنا والتي كان ينم عنها تعبير وجهينا الغائبيـــن عن المباشر وعن الحياة القاسية التي توشك ان تستردنا — تلك العاطفة لابد انها كانت كذلك ايضاً . وكانت الاغنية تملأ القاعة ، وكان صخبها يعزلنا عن العالم المطلّ من النوافذ ، حيث كان النهار يتضاءل . ولم تكن العبارة الطويلة تشارف قط نهايتها ، كانت العجوز دوبوبيه ترسل نحيبها الابدي في زفرة هادئة لن تنتهي ابداً على ما يبدو ، كاؤلئك الفنانين الذين يتماسكون طويلاً فوق قوانين التنفس ، وهم امام الجماهير الصاخبة . « ... ولكن

انتظروا قريباً

الفنـــــــون

عدد ممتاز من « الآداب »

يضمّ دراســـات مستفيضة عن الرسم والنحت والموسيقى والتمثيل والسينما في البلاد العربيـــة والغرب .

ذلك قد حدث ، لحسن الحظ ، امام مقهى دلفنا اليه وارتمى فيه زوجي على كرسي ، ولو لم يفعل ذلك ، لكان سقط في وسط الشارع ، كما اظن ، ولعجز ابداً عن النهوض ، بالرغم من ان ما اصيب به لم يكن في حقيقته خطراً جداً ، فقد كان حسبه ان يشرب كوب ماء ، فاذا بألم صدره ينقص بسرعة ، واذا به يستعيد سيره . وصحيح انه اعتمد في ذلك ذراعي ، ولم تكن ساقاه متماسكتين جيداً ، ولكنهما كانتا تملكان من القوة قـــدراً مكننا من متابعة سيرنا حتى منزل اهله الذي لم يكن بعيداً جداً ، والذي مددته فيه امه ، وما زلت اتمثلها ، على سرير بقي فيه اكثر من ساعة قبل ان يشعر بالراحة تماماً ... »

كان دوبوبيه جالساً في سريره جلسة مستقيمة ، يحاول ان يهديء ألمه : « كم تألمت لأني لم اكن استطيع ان ارفع يدي لاوقظ زوجتي . كان هذا يشبه ما أصابني عام ١٩٢٣ ، حين كنا في طريقنا لزيارة اهلي الذين كانوا ما يزالون احياء . ان هذا امر لا ينسى ، حتى بعد انقضاء عشرين سنة! » ويرتفع صوتي في الجوقة متمتماً : « إن العروق تقسو مع الايام وتتكثف فيجري فيها الدم جرياً اصعب ، وقد يحدث ان ينسد عرق متقلص . ولكن علاجاً يؤخذ في اوانه كفيل باعادة الامر الى نصابه . ثم اننا حين نشخص المرض تشخيصاً صحيحاً ، فبوسعنا ، اذا اتخذنا له الحيطة وعنينا به والتزمنا الراحة ، ان نتحاشى كل مضاعفة . »

***

وفي الخارج كان الليل يهبط ، وفي الغرفة المظلمة حيث كانت بعض بقايا الضوء تتعلق باطراف الاثاث المشمع ، كانت الاغنية مستمرة ، كان كل منا يتكلم باندفاع او بتفكير ، وفق اللحظات ، من غير ان ينقطع قط . وكان تعبير الوجوه واوضاع الاجسام وحركات الايدي المنفصلة عن الاجسام لتنتهي باشارات اتساع او انقباض للاصابع الجامدة لحظة ، كأنما هي لتعطي او لتقذف شيئاً الى بعيد او لتسترد اعطية . وكان اشراق النظرات وهو يضيف معناه الخاص — كان ذلك كله يغني رموز

اللغة او يضيء ، بمجرد وجوده ، تلك الهوة السوداء لما لا يعبر عنه .

وفجأة ، صمتت الاصوات ، بالرغم من ان اية اشارة للتعب لم تظهر على أحد منا : كان ذلك كهدأة مفاجئة بعد عاصفة من الكلمات . وسقطت يدي المرتفعة ، وانطوت سبابتها والتقت بالابهام ، فتعلقت به كأنما هي تستعينه . وفي تلك اللحظة ، انتقلت يدا دوبوبيه من على صدره الى السرير حيث ظلتا لحظة ساكنتين ، قبل ان تختبئا في الغطاء؛ واستشعرت حركة خلفي ؛ لقد ابتعدت المرأة ، واضيء مصباح كهربائي . على ان هذا التغير الفجائي لم يسجل اي اختلاف ؛ كل ما في الامر اننا نحن الثلاثة احسسنا في اللحظة نفسها حاجة الى الصمت . إن الضوء الجديد الذي غير المظاهر ، ولعله غير طبيعة الغرفة الصغيرة بالذات ، لم يعكر علينا وحدة إجماعنا .

وأخرج دوبوبيه يديه ، بجهد ، من تحت الغطاء ، ونزع قميصه ، ففحصته اذ ذاك ، ثم اقتعدت كرسياً امام طاولة وجعلت احرّر وصفتي .

وبعد ذلك ، أخذت اتكلم من جديد ، وحدي هذه المرة ، معلقاً على ما كتبت . وما لبث الشيخ ، بعد ان عانى ما عانى لارتداء قميصه ، ان استعاد تمايله ، فكان كتلك الفهود التي تتكبد الضجر في اقفاصها . وتمتمت: « سوف اعود غداً» وتناولت يده . وظل احدنا ينظر في وجه الآخر . وحين واصل تمايله ، بدأت انا ايضاً ، وكأنني ملتصق به ، بسبب ثبات نظرينا ، أهز رأسي يمنة ويسرة بايقاع شبيه بايقاعه . وكان دوبوبيه يشدّ على يدي بقوة : ولقد شاءت يدي الهزيلة ان تقاوم اليد التي كانت تشدها ، فتعانقها هي ايضاً ؛ ولكن قوة اصابع العامل الضخمة هي التي انتصرت . واستسلمت يدي الرخصة الموهونة ، بعد انتفاضة اخيرة ، وانتقل خدرها المؤلم تقريباً الى الذراع والكتف .

لقد تكلمنا من قبل طويلا ، في تناغم كامل ؛ وايأما كان معنى كلامنا ، وسواء تحدث كل منا بلغة مختلفة فان تفاهمنا كان واحداً ، فيما وراء وعينا في تلك المنطقة السوداء من الآلام والافراح التي تضيء احياناً ، مدة لحظة بعد دوار لذيذ . اما وان يدينا الآن قد اتحدتا ، خيراً مما تتحد الكلمات العاجزة ، فانها تصهران تحالفنا . كانت عينا دوبوبيه تلتمعان ببريق نشوة وانتصار . لقد شعر بضعفي ، وبمقاومة اصابعي ، ثم باستسلامها ، فعادت اليه قوة الماضي الضائعة ؛ ولكنه لم يسحقني . لان نصره لم يكن ذلك النصر الذي يهدم .

***

واخيراً فكّ التحام يدينا . وعيّنت المرأة في درج اخرجت منه اجرتي : ثلاث اوراق من فئة العشرين فرنكا ، قدمتها لي منشورة ومطبقة على يدي ، كما هو الشأن في لعب الورق . واذ ذاك اطبقت يدي على يدها من غير ان آخذ الاوراق . وارادت السيدة دوبوبيه ان آخذ المال ، وكان بودي اول الأمر ان اقبل ما منحتني إياه ، ولكني لم استطع ان امضي في حركتي حتى نهايتها . ثم إن يدينا اللتين فصلتهما كثافة الاوراق ، التي لم يكن لمسها منفراً ، انصهرتا بقوة . وكانت العجوز تتفحصني عبر نظارتها ذات الاطار الحديدي ، وحزرت من تقطيب حاجبيها انها لم تكن تراني جيداً ، وانا نفسي لم اتميز من عينيها ، خلف زجاج نظارتها المغشى ، الا وميضاً مزروراً . وظللنا صامتين ، لا يتحقق الاتصال بيننا إلا عبر الاوراق الثلاث ذات العشرين فرنكا ، وانها لعقبة تفصل بيننا ، وإن كلا منا ليرفض ان يختص بها نفسه . على ان أصابع العجوز تشنجت وتسللت خلال اصابعي وهي تدعك الاوراق كما لو انها تريد ، مرة اخيرة ، ان تلصقها بيدي ، ولكني قاومت . واذ ذاك انسحبت اليد بالمال . لقد استسلمت العجوز .

« ساعود غداً » قلتها مرة اخرى كسباً للوقت ، لأنني لم اكن استعجل الذهاب . واذ رفعت رأسي نحو الصور المتداعية ، وقع بصري على مرآة صغيرة مكسورة الى خمسة اجزاء او ستة ، ظهر فيها وجهي المقطع ، وعلى قسماته تعبير وددت ان امنحه إياه بأن أجمع الجبهة والانف والشعر والعينين . لقد اسقطتني المرآة المكسورة في شركها ، فبدا لي وجهي فاتناً بذلك المزيد من سمرة الشعر والبشرة : كان الجلد المزيت يلتمع بانعكاس النور ، وكانت العين المظللة الرطبة الوسيعة تنعزل في جزء من المرآة ، كما لو انها في اطار . واذ استشعرت هذه الصورة المجزأة اللامعة المسودّة التي تمثلني ، فكرت باني لا اشبه رجال هذه البلدة ؛ ولكني سارعت ادفع هذا الخاطر المغرور بسبب العجوزين اللذين كنت أشعر بوجودهما شعوراً عميقاً ، واتجهت نحو الباب . واستعادت العجوز ، على أثري ، عبارتها التي لا تنتهي والتي ستواصلها من غير شك ، مع فترات استراحة ، ومن غير ما تعب ، حتى يوافيها الأجل .

***

ان زيارتي لدوبوبيه تظل لي موضوع تأمل ودرس ، ولقد بسطها ذهني الى بضعة احداث : انتظاري القصير امام الباب الذي كانت تلتمع عليه رقعة من نحاس ، وتلمس الخشب الخشن ، ثم مشيتي المندفعة ، وبدء العبارة الهائلة التي ما لبثت ان رافقت حواري مع دوبوبيه ، فالصمت المفاجيء ، وفحص الشيخ العجوز؛ واخيراً لمسي المزعج للاوراق الثلاث من فئة العشرين فرنكاً ، واني اذ اذكر ذلك كله ، يتجه لي ان افكر ان هناك حاجة الى ميلاد علم يهتم بالعلاقات البشرية : الدنو ، والفرار ، والاتصال ، والحوار ، وحركات الجسم والاعضاء. علم يعالج توحد الانسان ، ومن ثم ، الانسان نفسه : ومن اجل هذا لم يغر هذا العلم احداً بعد . وان على الفضول ان يبدو متواضعاً امام القوى التي تجتذب الاحياء ، او تباعد فيما بينهم ، او تجمدهم ساعة من زمن ، وجهاً لوجه ، وان يكتفي من غير استنتاج ولا فائدة للفكر ، بملاحظة النبرات المنطلقة ، والاشارات المكتوبة والحركات ، والنظرات المرسلة . إن هناك هوة تعبير الاذهان المتجهة عبثاً الى نفسها ، والمعلنة عن ذاتها بهذه الكلمات وهذه الحركات وهذه الحروف التي بفضلها تتواصل الارواح .

سوف اموت من غير ان اشبع الفضول الذي عذبني ، ولكن قيمة الفضول تقوم على مجرد وجوده ، فغالباً ما لا تحتاج هذه الاسئلة الى اجوبة. انني اعرف جيداً انني لن اعرف ابداً لماذا اخذت ، بعد ان طرقت باب مخلوقين يدعيان دوبوبيه ، اتكلم وامتلىء حركة طوال ساعة ، بينما كانا هما ايضاً يتكلمان ويرفعان ذراعيهما او يشدان على يدي . وبعد ان نفذت الى صميمية العجوزين بسهولة بلغت من القوة بحيث احتاج الى سنوات طويلة من التفكير لأعجب لها ، شعرت باني لم ابق انا نفسي . لقد تم ، من جهتي ، تقدم لا في الفهم بل في المسلك . واحسب ان فقر آل دوبوبيه الذي يقارب فقري ، لا يد له في الامر ، وانما كان التغير في نفسي ، وكان ناتجاً عن دورة الزمن لا عن وضع اللذين واجهتهما .

ان اسبابها بعد الآن لا يهمني في شيء ، كما لا تهمني اسباب افراحها واحزانها ، لقد رأيت ما كانا عليه اعني مظهرهما ، اعني واقعهما . لقد وجدت نفسي امام شيخ نائم فايقظته ، وارتفع صوتانا ليعلنا تفاهمنا ، بينما كان خلفنا كائن آخر يعلن عن نفسه بعبارة لا تنتهي . لم اكن اريد ان افهم شيئاً ، لأنه ليس ثمة مايفهم مما هو انساني ، وكل ما في الامر اني وجدت مكاني بين الناس .